

# حركة النقد الأدبي المعاصر

بقلم محمد الدين فارس

النموذج « الوهمي » والبديل من ذلك النموذج المشاهد . ولكن لماذا يستبقينا هذا النموذج الاول معه لحظات من الزمان العريض ؟؟

ان « التفصيل » في الاعمال الفنية يختصر المسافة ، ويصبح العقل اكثر يقظة لانه يخرج من منطقة الضبابية المطلوبة ، وما دما نقرأ او نشاهد تلاخيص منصبطة فان انفعالنا ستظل راقدة غير آبهة بذلك النشاط الذهني ، الذي يدور في عالم بعيد عنها .. والتفصيل ، تحديد .. وتسطيح لحو التجربة .. وهو في الوقت نفسه اختصار للزمان النفسي الذي يتيح لنا المعيشة ، لانه يعطينا كل ما يريد ان يقوله العمل الفني دفعة واحدة دن ان يعطينا الاحساس بمراحل ميلاده .

اننا نريد من الاثر ان يكون عريض المسافات .. فانا الملح غموضا ضبابيا .. نوعا من الغموض .. منذ البدء ثم ابدا احس بالوضوح ، والضوء المتراوح كاني خارج من كهف الافلاطون . لماذا ؟ لاننا نحس حقانته الجمالية منذ الوهلة الاولى .. ثم نبدا في امتصاص جزئياته شيئا فشيئا بعد ذلك .. كما لو كنا مقبلين على ميناء في البحر الابيض المتوسط في اخريات الليل والوضوح النهاري ، يسري ببطء وسط العتمة المغفلة؟! وبعد ذلك يصبح الاثر لدينا مألوفاً لانه لم يعطينا كل ما يريد ان يقوله دفعة واحدة . فتحن اذا نعيش مراحل ميلاده . ان الانارة المتأخرة منذ القراءة الاولى التي تعيشها اعماقنا على شكل فنون دقيقة ماصة لهذا الجو الواحد تنتقل الى مرحلة اخرى عندما نعيد تنظيم هذا الانفعال الاول لنجمع اكبر مقدار من الحثيات والتبريرات . لننتقل الى مرحلة اخرى ايضا هي مرحلة التنقل لاننا في هذه الانشاء نجمع من جديد المواد الأولية التي كونت بنية العمل الفني ، في اناة ، ودقة ، وحيطة تامة .

فالعمل الفني يجب ان يكون اماننا كمدائن مغلقة . نحن نشم من بعيد عطورا ، واخلاقا من الالوان الطيفية التي تعبر اماننا كسريط قزحي جميل ، ونلمح مخايبه كنوز دفيئة ، حتى نتيج لشرطنا النقدي رحلة سياحية من الاحلام والرؤى في درب طويل ، نحن لا نعرفه .. ولكننا نبدا في معرفة معاله شيئا فشيئا .

وإذا قلنا ان الاثر الفني يشبه البارجة الضخمة التي تستسلم لايدي اللاحين والمهندسين في الاحواض العائمة ، وهي تستعد للنزول الى المحيط لأول مرة ، فان مهمة النقاد في هذه الحالة بالذات تصبح عملية شاقة ، لانهم بازاء مقدمات طويلة ، عمل كامل ، وعليهم ان يقيموا معادلات . ايضا كل التفاصيل والجزئيات ليقنعوا القارئ التلقى بان هذا العمل يستحق التقدير . ومن هنا يبدأ تعب المداد في يد الناقد .. فالنتيجة المطروحة اماننا لن تستميلنا الي جانبها الا اذا تتبعنا المراحل البنائية ، مرحلة مرحلة . وعلى الناقد ان يقدم لنا كوبا من عصير الخلاصات التحليلية ، والناقد في هذه الحالة يظل مرصودا من ابراج مراقبة اخرى تحيط به من الثقافات المقاتلة لدى الفنان الخالق والفنان المتذوق ، مرحلة متقدمة جدا لم نصل اليها في شرقنا الا عند بعض نقادنا الكبار ونحن نعدل اذواقنا ، او نضيف اليها حسب مستحدثات الحضارة وازدادتها التولية ، وانتقالها الكمية الى مجالات اخرى

اصبحت الاعمال الادبية في عصرنا الراهن ، لا تقاس بقيمتها الجمالية البحتة ، الا اذا كانت اعلق بالتراث ، والتراب ، والانسان ، لان حقائق هذا العصر المركب ، لا تعنى بالماورائيات . لا تعنى بالكلمات التي لا تحرك السكون ، او تبت في العدم القديم دبيب الحياة ، الكلمات التي تتأبى على حمل عذابات البشر ، واذا كان ابناء المسكونة مجموعة من الافكار والمشاعر المتحركة فان هذه الحركة ان لم تكن ذات غنى وخصوبة ، فانها تظل حركة عشوائية . تخسر دم الزمن الجاري في فتوات اعالي الفكر .. تدور ، ثم تدور في مدار مفلق .. مثل بندول الساعة الابله الذي يظل يهتز في قلب الليل الشتائي ، دون ان يتحرك الزمن في العنارب الدقيقة ..

فلسنا نقصد بالحركة « مطلق حركة » ولكننا نقصد الحركة التي تساهم في بناء « الان » وتنمية ابعاده الخالقة ، اما محاكاة حركة « ما كان » دون ربط واع بين شرائح التاريخ فان فيه تمويقا للخضارة الانسانية .. ان كثيرا من الاعمال الادبية تسقط في هذا الامتحان الذي تعفده حضارة الحرف في مشارف القرن ، ليس يعينني ابدا ان اقرا لحظة من خليط العقل الباطن في تواقيع تمثال برنزي يمرر بجانب عيني آلاف السنن الاغريقية الفتانة ، او ان اقف عند لوحة تقول لي ان اعماقها تكمن وراء اختصار الابعاد في بساطة لونين ، احدهما منظور والاخر وهمي ، او ان اقرا اعمالا مطولة مملوطة ، وهي مغلقة امامي كقارات الجليد الساكنة في قلب القطب المتجمد ، دون ان تشفع لها تلك التذيلات الجلوية من هنا وهناك .. لان عملية الانعاع ينبغي الا تأتي من خارج العمل الفني .. ولكن كل ذلك لا بأس به - ان تجاوزنا قليلا - شريطة ان تحملني تلك الاعمال على ممر ضيق ، يقضي بنا الى اعاشة شيء .. شيء يمس جلد الحقيقة النظيفة!

ان الانارة الفنية الخالدة تمر في قطار طويل ، لتترك انطباعاتها الازلية في عمرات التاريخ ولان هذه الانارة تحمل في تضاعفها بذور الخلق اللامتناهي ، تظل تنوعا حياتيا يتلادم مع البيئات النفسية المختلفة زمانا ومكانا ، فنحن مثلا نشاهد في فن العمارة ، اعمالا معجزة ، تتفق وذوق القرن العشرين العام . وبسياحة طويلة حول هذه الاعمال سوف نلمح اختلافا واضحا في اللغات ، وطرائق التعبير ، وتناول الاساليب الجمالية ، فالعمارة الهندية سوف تثير فينا الاحاسيس الدقيقة بكثرة التلافيف ، والجزئيات المتشابكة والتعقيد الشبيه بالموسيقى الحادة ، التي تحكي لنا اسطورة عريقة على عكس العمارة الاغريقية التي تختصر كل ذلك معتمدة على البساطة والوضوح وقوة التناسق على ان كل واحد من هذين التعبيرين يحمل الاف الخصائص التي تركز طابعه الاصيل والعريق في التاريخ ، الا انها في الزمان والمكان يتحدان في تشكيلات جديدة تتطور دائما بمعامل الاضافة ، والتعديل ، والتبديل احيانا ولكن بما لا يخرج عن ذلك الطابع ذي السمات والملامح العينة .

ان من العبث محاولة الفكاه من اسر لوحة ، ذات خلق ديمومي بالرغم من اننا قد نقف في الجانب المقابل لرفض المضامين الجمالية ، بطرح مضامين جمالية اخرى ترفد في واعيتنا الالفاظ لعناصر ذلك

مراة ومراة حتى يعتلنا السام الارسطاطالي .. ونحن غارقون في جدليات الشكل الرابع من منطقته القديم .

اذا قلنا مثلا ان القصة « يجب » ان يكون لها بداية ونهاية ووسط الخ .. واخذنا هذه المقاييس معنا ونحن نبحت عن البداية والنهاية في قصة جديدة اجمع النقاد على امتيازها وجودتها ، فان من الظلم البين ان نحشر القصة حشرا في داخل هذه الابعاد الثلاثة كيفما اتفق ، حتى تصبح مفصلة تفصيلا ثوبيا على هذا الهيكل «القبلي» الرسوم في مخيلتنا . هيكل الوسط والبداية والنهاية لاننا في هذه الحالة - وبعض نقادنا يفعلون ذلك - سنسلم بالامتياز المجمع عليه دون البحث عن كيف .. ولماذا .. لان الاجماع كافا تبعه السير الطويل بسماعاتنا الطيبة على مسارات مسام هذا الجسد القتي .. لنضع تقاريرنا النهائية .. وبيدا الناقد من نقطة الانتهاء .. ليقنع نفسه بانه ينبغي ان ينتقل الى مرحلة الدلالة ... على الامتياز . احب الرفض الناقد .. القواعد والمقاييس المستخلصة من دراسة اثار الخالدين ولا بأس ان يستأنس بها في دراساته ... فربما جاء اثر فني جيد يعطي مقاييس وقواعد تدقيقه اخرى غير ما هو متعارف عليه ..

اننا نهدم .. ثم نبني .. لاننا نملك طاقات مخزونة من «الكهربائية» التي تعطى للحياة مدلولاً ايجابياً .. واذا ما فرغست تيارات هذه «الكهربائية» التي لا يخلو منها كائن حي .. فان الزمان يدركه التفنن بفتاء خلاياه النشطة ، والحياة تموت .. وتختف حركات المرواح في عجلة الحضارة .. وذلك ما لن يكون ..

ان كثيرا من الاقلام الناقدة تدركها الشيخوخة بسرعة مذهلة ، لا .. لانها فقدت المادة الخام ولكن لان الزمن يسرع باقصى سرعته .. فاليوم الذي نعيشه ، يدخل في منطقة الماضي بمجرد غروب الشمس ، ان عقل القرن العشرين باتساع الافق وعظمة الافلاك لا يهدأ .. كما لو كان

مطيرة ، ونحن نصيف الى انه ليس هنالك اعمال كاملة ، حتى في مجال العلوم التي تخضع للانضباط بعد تخطيطها مرحلة « الفرض » ومن هنا يظل النقد محاولة .. مجرد محاولة نسبية لتقريب الحقيقة الجمالية .

ان ذلك الالاحاح المستمر لكشف اكبر كمية من الاغطية لابرار جمالية العمل الفني هو ذلك البحث المستمر عن الانسان الثلجي المخبوء في ممرات جبال هملايا ، هو قص الاثر بدراسة الانطباعات العميقة في تضاريس النفس البشرية ! وليصبح الناقد على ارض صلبة لا يسد ان يطرح مجموعة من الالافاعات ، التي تبادلها نفسية التلقي وهي في منطقة عازلة .. هي منطقة « التعميل » ايضا بمجموعة من التوضيحات والاستفسارات حتى تستطيع مناظرنا الالاقطة ان تضع يدها على الاعمق .. وهي تبحث عن قضايا انسان العصر .. متجاوزة كل الخطوط والظلال الى كل ما هو قمة درامية ، تعيش المأساة عن قرب .. ومن ثم فان الناقد يوجد عندما تكون مناجم نفسه مترعة بالجمال والتجسرد ، والهدوء البديع التامل ، لا بد من وجود هذا الصفاء الشفاف ، الذي يعكس الرغبات الجبولة من الوجود المادي والتزاحمة في حجرة «التحميض» في عالم الفنان الداخلي . الفنان الذي يعيش هنا العصر المهول باعراقه ودمائه . ولان النقد في عصرنا هذا عملية لا متناهية . عصرنا هذا يطر بلا ساق نحو البعيد واللامتوقع ، فهو اذا « يجب » ان يواكب الحياة في منحدراتها ومرتفاتها بمدساته الدائرة معها . وهي لا تستقر على حال . لانها دائما تحاول اتخاذ الارضاح المناسبة لاعطاء الحقيقة الجمالية اعطاء نسيبا ..

ان الاختلاف في تناول الاثر الفني حقيقة واقعة . ولذلك فنحن نرفض المنهجية الصارمة حين نتناول اثرا من الاثار الباقية ، فانا اترك العنان لنفسي الفنانة ، لتجد جانباً من ساحاتها مطبورة وراء بعسد منظور في قاع صورة ، او حركة ، او ايقاعة او في تجايد انفعالية دقيقة . تقول كل ذلك من خلال الحرف . الذي يترك ابوابه مفتوحة دائما لطرفات الاصابع الرقيقة واللمسات التي تختصر المسافات والابعاد ، لان اذواقنا دائما صعود لنشدان الاعلى فالاعلى ، فان الانسان يقف في سفح جبل . فيحس بثقل الضوضاء الذي يغطي المدينة ، ثم يصعد الى مرتفع جبلي طامح للذبابات . فانه يحس المدينة كلها عريانة امامه . وشتان ما بين الاحساسين ، والنقد لا يقول الحقيقة كما هي مجردة ولكنه يشير اليها بخلق بيئات تقريبية وتقديم حيثيات مستقرأة من الجو النفسي العام . وبالتالي يحس القاري المتلقي احساسا عفويا لا مفر منه بان اصابع خفية تشير اليه ، ان ذلك .. « هو برج ايفل » .

ان بعض الاثار الرمزية (1) تجعلنا نطرح فروضا قبل ان نحاول دخولها لاننا نجد انبهاما في معالم الطريق ، ولهذا فاننا نرفض المقاييس القبلية التي تلجم عفوية رحلتنا في بلاد الحرف لاننا حينئذ لن نترك لعيون حواسنا ان ترى الا المشاهد المجمدة .. والتي نضعها مثلا اعلى لطاف رحلتنا ، ولكن لا بأس ان نضع لكل عمل فني ، وبعد رحلة ضبابية مستترقة ، وبعد احاطة وشمول كاملين ، لا بأس ان نستخلص مقاييس وقواعد لم تكن نعرفها من قبل ولكن الاثر المطروح امامنا ... يجعلنا نصل اليها من مرحلة غائمة لا لونية الى مرحلة وضوح ووعي لان كل اثر يفرض الى حقيقة ما .. والحقيقة دائما في الفن التلظيف متممة لانها شريحة دسمة .. تعاش على مهل .. لانها تعنى قيمة اساسية ، والجانب الجمالي هو الذي يوصل لنا حاملة هذه القيمة حين نستقبلها بجهازنا العصبي ونحن نبدا في معرفة الخصوبة في المدى المرجى الذي يفزونا بالمطور المهاجمة ، واذا ولفنا موقفا عكسيا فاننا نصبح في حالة « لا ناقد » لاننا لن نقول جديدا ، في الوقت الذي نعيد فيه على القاعدة الاسطوانية وجه الاسطوانة على الجانب الاخر ... ثم نمكس القضية

(1) راجع قصيدة الشخص الثاني لنازك الملائكة وقصيدة اليقظة للتيجاني يوسف بشير « ديوان اشراق »

## شعر

### من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
العودة من النبع الحالم	سلمى الجيوسي
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي

### دار الاداب

بيروت - ص.ب. ٤١٢٣

انفجارا متواليا ، او حركة مخيفة في اعماق فرن ذرى وعلى النقد ان يواجه كل الاحتمالات القادمة .

ان هناك .. حقائق جمالية لا تعني هذا العصر الجريء بمقدار ما تضى عصور ما قبل التاريخ تلك المسلات الجميلة التي نحس نحوها بخنين غريب جانح نحو الماضي السحيق ، والتي تعيش المجال المحلي لا تتعداه باي حال من الاحوال الى مسامع وهيران وارض اورشليم ومغارب موزنيق ورديسيا والصراعات العنيفة الاخذة بخناق جنوبشرق اسيا ، هذه الحقائق السالفة ما تزال تعيش معنا ، كانسان الغابة المجلوب من « جاوا » وغابات الانهار العليا في القارة .. لتزين حدائق الحيوان في العالم ، ان النقد مرتبط بالحياة ، وعلى النقد ان يمين نوعية الحياة التي يريد ، والمسار الذي يود السير في مضماره . ان العقل النقدي مكلف ، في عصر الملوكوت الفضائي ، ان يجتاز معابر النسيج اللحمي ليحس العظام والفصارييف اهي محملة بسل الحضارات المنسحبة ، اهي خروعية التجاوييف ام ما تزال قوية سليمة ومن هنا تكون مسؤولية الناقد ..

ان الفصل بين ما هو ايجابي ، وبين ما هو سلبي ، هو تمرد خلاق على معوقات سير التاريخ فالمضامين القديمة بعضها يماشي الزمن بتحوله ... لانه كان منذ البدء تعبيرا عن حركة تطور ، فهو ذا اتصال اخر مصب بمصب نهر جديد .. ومن ثم تنشط خلاياه ، وتفتح مسامه لامتناص اكبر كمية من دم الحياة الشابية ، وبمفهما يظل ميتا حيث هو في مكانه ، مثل بضع صبارات متوحيدات في تنوء جيل !

على ان هذه المضامين ان لم تكن في حالة منتقلة فانها مدفوعة الى ذلك بحكم التطور التلقائي بمعنى انها اما ان تتكيف مع هذه البيئة الطارئة ، واما ان تغلى السبيل لدوامات الحياة المنطلقة في سيمفونية رائعة ، لان التيار يدفع في طريقه دائما حتى الصخور القابضة في مداخل التراب ، وتبعا لذلك تخلع الفنون .. جميع الفنون اريدتها القديمة ، لترتدي اردية اخرى تلائم جو الطقس الوافد ، فالكلمة ترسل لا لتكون مجرد وعاء تعبير يحمي شحنة اثيرة سرعان ما تمتصها طواحين الهواء ، ولكنها ترسل لتكون زادا ثقافيا ينمي الاحساس بالزمن وبقيمة الحضارة الانسانية .

على ان هذه المضامين الجديدة لا تحقق ذاتها بمجرد تقمصها روح العصر ، فلا بد من ايجاد مضايق تصفي علائق التيار ، المنذفع دون توييق للمضوية المطلوبة في مجال الخلق والابداع فما اكثر المضامين الجديدة التي تعود بحزم الضوء الى بيوت المنكبوت لتعكس ضوءا عنكبوتيا واهنا !

ينبغي الا نركز اهتمامنا على بضع الفاظ ، هي في وهما القاصر مفاتيح العمل الفني ، لنطبق عليها مجموعة من الاراء والتأملات التي استخلصناها في رحلانا التدفوقية ، لان النتيجة هنا ستكون ابراز مهارة الناقد في ادارة فن المجادلة ، لانه في المحل الاول يضع اهتمامه على تطبيق هذه التجميعات التي عنده كيفما اتفق ، اما الاثر المطروح امامه فهو بمثابة الانابيب التي توصل الشحنة التي عنده كعملية لحوالته تلك .. وبالتالي يفتو الاثر المطروح كالموازي الخشبية التي توضع على قدم الشاطيء وفوق شفة الحاجز السفيني ... مجرد ممشي لا فكار الناقد الهمام .

ينبغي ان تكون هذه الالفاظ خصبة مشعة غارقة في مناخها النفسي ، تعطي عطاها الجمالي الذي يعطي عطاء جماليا ... مغايرا كل المغايرة .. بمعنى ان نلف امام تمثال مرمرى عريق ..

يفتح لي ذلك التامل العريض مجالات اخرى .. كان انتقل تو الى استمرار التدفق بشكل اخر في قطعة موسيقية لموزار مثلا كنت اسمعها امس في جوف الليل .. وانا احاول حل معادلة رياضية جافة .

وبعد .. ان النقد عندنا ما يزال . تجربة فاشلة . فهو اما هجوم سوقي نازل ، يعتمد على اثاره الجوانب الشخصية المفتعلة ، واما امديح مسهبة .. ليست قيما مستخلصة من بنية العمل الفني نفسه بمقدار ما هي نتاج العلاقات الشخصية ، وكلا النمطين يمكن اضافته الى فنون القول الاخرى .. القديمة .. المدح والذم ، دون ان يمت واحد منهما الى النقد بمعناه المتعارف .. وبطبيعة الحال نحن نستثنى في هذا المجال .. الافلام المتكلمة التي ساهمت في بناء الكلمة الناقدة البناءة . ان رصيد الحب الصفاء ... والشفافية والتجرد عصب الحياة والبقاء بالنسبة للناقد .. حتى تصبح كلماته الملقاة بعد ذلك ذات وزن وكثافة .. ان تكون رسائل صداقة واشواق تقول لذلك الوتر الحاد ينبغي ان تقيم بينك وبين ذلك الوتر المقابل حلف صداقة وانسجام . ان الوصول الى ذلك المرتفع الهائل هو محاولة الوصول الى اعالي « افرست » ولن يتأتى ذلك الا لنوعي الحس المتفتح الذين يستقبلون في الاثر الفني اللحظات القمية . والتي هي خلق لا يقبل التكرار (١٤)

## محيي الدين فارس

(١٤) محاضرة القيت في « دار السودان » بالقاهرة بدعوة من لجنيتها الثقافية

## هير وشيما ... حبيبي

ماساة الحرب .. والحب !

قصة رائعة بقلم مارغريت دورا اخرجت في فيلم ما يزال يثير حتى اليوم ضجة كبيرة في اوساط العالم ويشهد اقبالا لم تعرفه الا افلام رفيعة نادرة .

ولم يسبق لقصة ان عبرت كهذه القصة تعبيريا دقيقا رائعا عن الصلة التي تربط بين الحب والحرب من حيث عنصر الفاجعة .

والواقع ان المؤلفة قد وفقت توفيقا كبيرا في رسم نفسياتي الرجل الياباني والمرأة الفرنسية اللذين يعيشان هذه المأساة : مأساة الحرب .. والحب !

منشورات دار الاداب

الثلثون ١٥٠ ق.ل